.....

﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ﴾ [البقرة:١٦٤]، فالمُراد به هنا السَّماءُ؛ لقوله: ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، لكِنْ هُنا ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ المُرادُ بِهِ العُلُوُّ.

يقول المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، لنا فيها ثَلاثُ تَصَوُّراتٍ: تصوُّرٌ باطِلٌ، وتصوُّرانِ صحيحانِ:

التصوُّر الأوَّلُ (التصوُّر الباطل): أن نَظُنَّ أن معْنى كونه في السَّماءِ أن السَّماءَ تُحيطُ به، وأنه داخلها، فهذا تصوُّر باطلٌ يُبطِلُه العَقْلُ والشرعُ.

وأتى المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأمثِلَةٍ تدُلّ على أن (في) تكون للظرفية ولكن بحسبِ ما تُضافُ إليه بحسب موقْعِهَا ومكانها.

التَّصَوُّرُ الثانِي: أن نقولَ: إن المُراد بالسَّماءِ هُنا العُلوُّ، وتكون في السَّماءِ؛ أي: في العُلُوِّ لا في الأجرامِ المعَيَّنَةِ، ولا شكَّ أن اللهَ تعالى في العُلوِّ وليس في السفلِ.

قد يطالِبُنَا إنسان فيقولُ: أينَ الدَّلِيلُ على أن السَّماء يُرادُ بها العُلُوُّ، نقول له: مثلُ قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨]، يعني: من العُلُوِّ، ومثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج:١٥]، أي: إلى العُلُوِّ.

وكما يُقال: الجنَّة في السَّماءِ. يعني: في العُلوِّ، ليس معناه أن السَّماءَ محيطَةٌ بها؛ لأنَّ الجنَّةَ فوقَ السَّماءِ.

التصوُّرُ الثَّالثُ: أن نجعل (في) بمَعْنى (على)، يكون مَعْنى من (في السَّماء) (على السَّماء)، وإن كانَ الآن إذا قُلْنا: (في) بمَعْنى (على) نحتاج إلى الإتيانِ بشاهِدٍ يَدُلُّ على أن في بمَعنى على.

وَلَـمَّا كَانَ قَد اسْتَقَرَّ فِي نُفُوسِ الْمُخَاطَبِينَ أَنَّ الله هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى، وَأَنَّهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ كَانَ الْمَفْهُومُ مِنْ قَوْلِهِ: إِنَّهُ فِي السَّمَاءِ أَنَّهُ فِي الْعُلُوِّ، وَأَنَّهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ. وَكَذَلِكَ الجَارِيَةُ لَـمَّا قَالَ لَـهَا: «أَيْنَ اللهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، إِنَّمَا أَرَادَت الْعُلُوَّ مَعَ عَدَمِ تَخْصِيصِهِ بِالْأَجْسَامِ الْمَخْلُوقَةِ وَحُلُولِهِ فِيهَا، وَإِذَا قِيلَ: الْعُلُوُّ فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ مَا فَوْقَ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا فَمَا فَوْقَهَا كُلِّهَا هُوَ فِي السَّمَاءِ وَلَا يَقْتَضِي هَذَا أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ ظَرْفٌ وُجُودِيٌّ يُحِيطُ بِهِ؛ إِذْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَالَـمِ شَيْءٌ مَوْجُودٌ إِلَّا اللهُ، كَمَا لَوْ قِيلَ: الْعَرْشُ فِي السَّمَاءِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ فِي شَيْءٍ آخَرَ مَوْجُودٍ مَخْلُوقٍ، وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّ السَّمَاءَ الْمُرَادُ بِهَا الْأَفْلَاكُ كَانَ الْمُرَادُ أَنَّهُ عَلَيْهَا كَمَا قَالَ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]، وَكَمَا قَالَ: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٣٧]، وَكَمَا قَالَ: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة:٢]، وَيُقَالُ: فُلَانٌ فِي الجَبَلِ وَفِي السَّطْحِ وَإِنْ كَانَ عَلَى أَعْلَى شَيْءٍ فِيهِ[١].

---

[١] نأتي بشاهدٍ مثل: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]، إذ ليْس المعْنَى في جوفِ الجُذوعِ، لكن المَعْنى: على جُذوعِ النَّخْلِ، وكذَلِك ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ليس معناهَا احْفُروا خنادِقَ وسيروا فيها، بل تَعني: سِيرُوا على الأرضِ.

فتبَيَّنَ بهذا أن (في) تأتي بمَعْنى (على)، ولا يجوز أن يتوهَّم من ذَلِك، ومَنْ تَوَهَّمَهُ فهو ضالٌّ خاطِئٌ.

فـ(في) للظرفية، وأن السَّماءَ مُحيطَةٌ باللهِ وهو داخِلَها، هذا شَيء مُمْتَنع ولا يجوزُ، ولا نَصِفُ الله تعالى به في قولِه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، فهذا المَعْنى لـم يُرِدْه أبدًا.

الْقَاعِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّا نَعْلَمُ لَـمَّا أُخْبِرْنَا بِهِ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ[١].

فَإِنَّ الله قَالَ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾، .....

---

[١] هذه قاعِدَةٌ مُهِمَّة، ومما أَخْبَرَنَا اللهُ به عن صفاتِهِ مَا نعْلمُه من وجهٍ دُون وجْهٍ، ونحن نضْرِبُ مثلًا لذَلِك: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف:٥٤]، فنحن نعْلَمُ معْنَى خلق، وأن الخلقَ هو الإيجادُ والإبدْاعُ والاختِراعُ وما أشبه ذَلِك، لكن لا نعلم كيف خَلَقَ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف:٥١]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، ونحن نعْلَمُ معْنَى استوى، وأنَّه عَلا واستَقَرَّ، لكن لا نعلمُ كيفَ استَوَى، إذن نحن نعلمُ ما أخبرنا الله به من وجْهٍ دونَ وجهٍ، فمِنْ وجْهِ المعْنى نعْلَمُه ومن وجْهِ الحقِيقَةِ والكَيفِيَّةِ لا نعلمُه، وبهذا يزُولُ الإشكال الَّذي يرِدُ: هلْ آياتُ الصِّفَاتِ من المتشابِه أو من المُحْكَمِ؟

فالجوَاب على هذا السُّؤالِ: إن أردتَ المعْنى فهِي من المُحكَمِ، وإن أردتَ الكَيفِيَّةَ والحقِيقَةَ فإنَّه متشابِهٌ، فمن حيثُ المعنَى فهُو معروفٌ كما قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الْاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ»(١)، ومن حيثُ الكَيْفِيَّةِ فهِي مجهولةٌ.

إذن كلُّ صِفَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ إن أَرَدْتَ معناهَا فهِي من المحْكَمِ الواضِحِ، وإذا أردتَ التَّشْبِيهَ والحقيقةَ فهي من المتَشَابِهِ؛ لأنَّنا لا نعْلَمُ ذَلِك.

ثم إن المُؤلِّف فرَّع وأطالَ على هذِهِ القاعِدَةِ.

---

(١) تقدم تخريجه (ص:١٦١).

وَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾، وَقَالَ: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[1].

---

[١] سؤال: هل هذه المغيباتُ فقط الَّتي نَعْلَمُها من وجهٍ دُونَ وجهٍ؟

الجوَاب: لا، كلُّ المغَيَّبَاتِ؛ الأسْماءُ والصِّفَات، والجنَّةُ أيضًا وما فيها من النَّعِيمِ، والنَّارُ وما فيها من الجَحيمِ كلها أيضًا نَعْلَمُه من وجْهٍ دونَ وجه، إن الأمورَ بمَبْنَاها، فإنا نَعْلمُها من وَجْه دونَ وجهٍ، وجهٌ أننا نعْلَمُه وأننا يمكِنُ أن نَبلُغَهُ بالدَّلِيل، فإن الله تعالى قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء:٨٢]، والاستفهامُ هنا للتَّوبيخِ؛ توبيخٌ مَنْ لم يتَدَبَّرِ القرآنَ، وكون من لم يتدبَّرِ القرآنَ مُوَبَّخًا يدلُّ على أن القُرآن يمكِنُ الوصولُ إلى معناه، إذ لو لم يُمْكِنِ الوصول إلى معناه ما كان التوبيخُ على ترْكِ التَّدَبُّرِ حالًّا محلَّه؛ يعني: ليس واقعًا في محلِّهِ فكيف يُوبَّخ الإِنسَان على عدم تدبُّر ما لم يُمْكِنْهُ فهمه؟!

الجوَاب: لا، لا يمكن؛ إذن فالقرآنُ يمْكِنُ الوصولُ إلى معرفَةِ معنَاهُ، ولذَلِك وبَّخ اللهُ من لم يتَدَبَّرُوا القرآنَ.

إذن ما هو الدَّلِيلُ على أننا نعلم ما أخْبَرَنا به مِن وجْهٍ دونَ وجْهٍ؟ الدليلُ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء:٨٢]، وجه الدَّلالة: تَوبِيخُ اللهِ هؤُلاءِ الَّذين لا يتَدَبَّرونَ القُرآنَ، وهذا يدُلُّ على أنه يمكنُ الوصول إلى معناه وإلا لما كانَ لتَوبِيخِهِ حَدٌّ.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، المُراد بقولِهِ: ما قِيلَ لكم وهُو القرآنُ، وقال تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]، ليَدَّبَّـرُوا آياتِـهِ،

وَقَالَ تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤] [١].

فَأَمَرَ بِتَدَبُّرِ الكِتَابِ كُلِّهِ وَقَدْ قَالَ تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧] [٢].

هذا الشاهِدُ، وبعد التدبُّرِ تذَكُّرُ أولي الألبابِ، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، لو كنا لا نعرفُ معْنَى القرآنِ هل يمكن أن نتَذَكَّرَ؟ أبدًا لو جاء أفصْحُ النَّاسِ باللغَةِ الأعجَمِيَّةِ ووقف أمامَنَا وخطَبَ خِطابًا فصيحًا ونحن لا نعرف لُغتَهُ هل يؤثِّرُ فِينَا؟

الجوَاب: أنه لا يؤثِّرُ، إذن القُرآن لوْلا أنه يمكنُ الوصولُ إلى معناه ما قال: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]. إذ لا تَدبُّرَ إلا بعد مَعْرفة المَعْنى.

[١] فأمَرَ بتدبُّرِ القُرآنِ كلِّه، أين الأمرُ؟ فأمَرَ بتَدَبُّرِ القرآنِ، الآياتُ ليس فيها الأمرُ الَّذي هو بصِيغَةِ الأمرِ، لكن فيها ما يدُلُّ على الأمْرِ، وهو التَّوبيخُ والإنكارُ على منْ لم يتَدَبَّرْهُ، فمن لازِم ذَلِك أن يُؤمرَ الإنسَان بتدبُّرِهِ، بتدَبُّرِ الكتاب كلِّه، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ لم يقُل إلا آيات الصِّفَات، ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون:٦٨].

إذن هو شامِلٌ للقرآنِ كُلِّه ومنه آياتُ الصِّفَات، وحينئذٍ نعْرِفُ أنه يمكن الوصولُ إلى معاني آيات الصِّفَاتِ.

[٢] الآيَة تدُلُّ على أننا نعْلَمُ ما في القرآنِ مِنْ وجهٍ دون وَجْهٍ، لكن بيَّن أن القرآنَ ينقَسِمُ إلى مُحكَمٍ ومتَشَابِه، فالمحكمُ ما علِمْنَا مَعناه وحقيقتَهُ.

مثل: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام:٧٢]، هذا مُحْكَمٌ، نعرف معْنَى إقامة الصلاة، ونعْرِفُ الصلاةَ ونُقِيمُها.

وَجُمْهُورُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَخَلَفِهَا عَلَى أَنَّ الْوَقْفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧][١].

وَهَذَا هُوَ الْمَأْثُورُ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمْ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ:

- تَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا.
- وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ.

مثل: ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ مُحكَم، لكنَّ صِفَاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هل من المُحكم أم المتَشابِهِ؟

من حيث المَعْنى مُحكم؛ لأنَّه واضِحٌ، ومن حيث الحقيقةِ متَشَابِهٌ ولهذا يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧]، ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إذا وقفنا أعْرَبْنَا لفظَ الجلالةِ (الله) فاعِلًا و﴿تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ مفعولًا، وتُعْرَبُ ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ الرَّاسِخُونَ: مبتدأ، (ويقُولُونَ) الجملة خبرُ المبتدأ؛ يعني: والراسخونَ في العلم يقُولُونَ آمنَّا به كُلٌّ من عند رَبِّنَا، الواو للاستئناف والراسخون: مبتدأ، وجملة (يقُولُونَ) خَبَرُهُ.

وقوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:٧]، يعني: ما يتذكَّر إلا أصحابُ العُقولِ.

[١] هذا الوقْفُ لازِمٌ؛ لأنَّه لو وَصَلْتَ لاختلفَ المَعْنى المقصودُ، فيكونُ الوقفُ لُزومًا على قولِه: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ على رأي جمهورِ سلَفِ الأُمَّةِ وخَلَفِها.

▪ وَتَفْسِيرٌ تَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ.

▪ وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ مَنِ ادَّعَى عِلْمَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ(١)[١].

---

[١] قسَّمَهُ على أربعَةِ أوجُهٍ:

▪ تَفْسيرٌ تَعْرِفُه العَرَبُ من كلامِهَا:

مثلُ مَعْرِفَةِ الكهفِ، والنَّمارِقِ، والسُّررِ والأكوابِ، وما أشبه ذلِكَ، فهذا المرْجِعُ فيه إلى اللُّغَةِ العربيَّةِ.

▪ وتَفْسيرٌ لا يُعذَرُ أحدٌ بجَهالتِهِ:

يعني: لا يُعْذَرُ لكن لَا بُدَّ أن يُعْلَمَ؛ وذلك مِثْلُ الأمورِ الَّتي تَلْزَمُ العَبْدَ من إقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، والحجِّ، وما أشبَه ذلكَ، هذا ليس كلُّ أحدٍ يعْرِفُهُ، لكن لا يُعذَرُ أحدٌ بجَهلِهِ، يجب أن يتَعلَّمَه الإِنسَان.

▪ وتفسيرٌ تَعْلَمُهُ العلماءُ:

مثلُ الناسِخِ والمنسوخِ، والعامِّ والخاصِّ، والآياتُ الَّتي ظاهِرهَا التعارُض تحتاجُ إلى جمْعٍ وما أشبَه ذلكَ، هذا ليس كلُّ واحدٍ يَعْلَمُه، ولكن يعْلَمُه العلماءُ.

▪ تفسيرٌ لا يعْلَمُه إلا اللهُ:

مثلُ حقائقَ ما أخبرَ اللهُ بها عَنْ نفْسِهِ وعنِ اليومِ الآخِرِ، هذا لا يعْلَمُه إلا اللهُ، لا يجتَهِدُ أحدٌ فيقولُ: أنا أعْرِفُ حقيقةَ يدِ اللهِ، أعرِفُ حقيقةَ الجنَّةِ، حقيقةَ النَّارِ، فلا أحدَ يَعْرِفُها، ولو ادَّعى العلمَ فهو كاذِبٌ.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٧٠).

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَطَائِفَةٍ: أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ، وَقَدْ قَالَ مُجَاهِدٌ: عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ أُوقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ وَأَسْأَلُهُ عَنْ تَفْسِيرِهَا. وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ عِنْدَ التَّحْقِيقِ[١].

---

[١] فيه اعتراض آخرُ يَرَوْن أن الراسخِينَ في العِلم يعْرِفُونَ التَّأويلاتِ، وهؤُلاءِ هُمُ الأقلُّ؛ لأنَّه ما دامَ يقولُ: جمهورُ سلفِ الأُمَّةِ وخلَفِها على الوقفِ على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ والراسِخُون في العلمِ يعلمونَ تأويلَهُ، إذا قُلنا: قِفْ على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فمعْنَى ذَلِك أن الرَّاسِخِينَ في العلمِ لا يَعْرِفُونَ التَّأويلَ، لكن رُوِيَ عن مجاهِدٍ وطائفَةٍ من أهلِ العلم حتى عن ابن عباس نفسِه أنه قال: «أَنَا مِنَ الرَّاسِخِينَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ»(١)، هو نفسه يقول هذا.

وما رُوِيَ عن مجاهد بأنه عرَض المصْحَفَ من فاتِحتِه إلى خاتمتِهِ على ابنِ عباسٍ يقِفُ عندَ كلِّ آيَةٍ ويسألُه، يجْرِي على أن الرَّاسِخين في العلم أيضًا يعلَمُونَ التَّأويلَ، وعلى هذا الرَّأي لا يلزَمُ الوقفُ على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بل تَصِلُ وتقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧]، ونُعْرِبُها على هذا الوجه فنقول: الواو حرف عطفٍ، والرَّاسِخُونَ معطوفٌ على الله، فتكون فاعلًا، فالرَّاسِخُونَ إذن يعلَمونَ تأويلَهُ، وتكون جملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حالًا من الرَّاسِخِينَ في العِلمِ؛ يعني: أنهم يعلَمُونَ بقلوبِهِمْ هذا المَعْنى، ويقُولُونَ بألسنَتِهِم: آمنَّا به كُلٌّ من عندِ ربِّنا، وبسببِ إيمانِهِمْ أمكنهم الوصولُ إلى معرفَةِ هذا المتشابِه؛ لأنَّ الَّذي لا يُؤمِنُ لو عرضْتَ عليه الآياتِ المتشابِهَاتِ أو عَرَضَتْ له المتشابهاتِ يزْدادُ نُفورًا، والمؤمن الَّذي يعْرف أنه مِنْ عندِ اللهِ، وأنه لا يمْكِنُ أن يتَناقَضَ يتمَعَّن ويتدَبَّر فيزداد إيمانًا، ولهذا قال: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ١٨٣).

.....

كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]، هل بين القولَينِ خلافٌ وتعارضٌ؟ قول من يقول: إن المتشَابِهَ لا يعلَمُه إلا الله لا يُعلم تأويلُه، وقول من يقول: إن المتشابِه يَعْلَمُ تأويلَه اللهُ والراسخونَ في العِلْمِ هل بينهما تعارَضٌ؟

يقول المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا تعارُض بينهما أو «**لَا مُنافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ عِنْدَ التَّحْقِيقِ**».

القولُ الأوَّلُ: من يقول: إن المتشابِهَ لا يعلَمُ تأويلَهُ إلا الله، وهو الَّذي عليه جمهورُ سلفِ الأُمَّةِ وخلَفِها.

القول الثَّاني: الَّذي يقولُ: إن الرَّاسِخِينَ في العِلم يعلمُونَ التَّأويلَ أيضًا.

المؤلِّفُ تكلَّمَ على الآيَة: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران:٧]. في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ فيها رأيانِ؛ الرَّأيُ الأوَّل يقولُ: قِفْ على قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فلا يكونُ الرَّاسِخُونَ في العِلمِ عالِمين بتأويلِهِ، لا يعلمُ تأويلَهُ إلا اللهُ فقط، ووظيفَةُ الراسِخينَ في العِلمِ أنهم يقُولُونَ: آمنَّا به كلٌّ من عِندِ رَبِّنَا.

الرَّأي الثَّاني يقولُ: لا تَقِفْ على ﴿ٱللَّهَ وَلَا﴾، بل صِلِ الكَلام وقُل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧]، يعلَمُونَ تأويلَهُ.

فعندك رأي يقول: إن المتشابِه لا يعْلَمُ تأويلَهُ إلا اللهُ، ورأي يقول: المتشابِه لا يعْلَمُ تأويلَهُ إلا اللهُ والرَّاسِخُونَ في العلمِ.

.....

وإذا سألَ سائلٌ: هل يختَلِفُ الإعرابُ في حالِ الوقفِ أو الوصْلِ؟

فالجوَاب: نعم يختلِفُ؛ لأنَّك إذا وقفتَ على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فهي مبتدَأٌ والواو للاستئنافِ، وجملة (يَقولونَ) خبرٌ، وإذا وصَلْتَ صارتِ الواوُ حرفَ عطْفٍ والراسخونَ معطوفٌ على الله، والمعطوفُ على المرفوعِ مرفوعٌ فهي فاعل، وجملة (يقُولُونَ) حالٌ في محلِّ نَصْبٍ على الحالِ.

والمُؤلِّف يقول: «لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ» لماذا لم يكُنْ بينهما مُنافاة؟ لأنَّ كلَّ واحدٍ محمولٌ على جِهَةٍ أخْرَى، التنافي إنما يكون فيما إذا اتَّفَقَ المتنَافِيانِ في جِهَةٍ واحِدَةٍ، أما إذا كان لكلِّ واحدٍ جهةٌ فلا مُنافاةَ ولا تصَالُح بينهُما، لا منافاةَ بين الوقفِ والوَصْلِ، لماذا لا منافاة؟ لأنَّ للوقْفِ معْنَى وللوصْلِ معْنَى آخر، ما هو مَعْنى الوصلِ؟

الجوَاب: أن التَّأويلَ بمَعْنى التفسيرِ؛ فإننا إذا قلنا: وما يَعْلَمُ تَفْسيرَهُ إلا الله، فإننا نعلَمُ أن الراسِخينَ في العِلْمِ يَعلَمون تفسيرَهُ، ولهذا فُسِّر القرآنُ من أوَّله إلى آخِرِهِ مثلُ ما قالَ مجاهِدٌ فيما جاء عن ابنِ عبَّاسٍ، وإذا قلنا: إن التَّأويلَ هو العاقِبَةُ والحقيقة الَّتي يَؤُولُ إليها الخبرُ أو الأمر، فإنما أخبرَ الله به عن نفْسِه وعن اليوم الآخرِ، لا يعْلَمُه إلا اللهُ.

﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمَعْنى استَوْلى، كيفية استواءِ الله على العَرْشِ، استَوى بمَعْنى: عَلا واستَقَرَّ، كيْفِيَّةُ كذا وكذا؛ أي: من التَّأويل بمعْنَى التفسير، وأي: من التَّأويل بمعْنَى الحَقِيقَة؟

فَإِنَّ لَفْظَ التَّأْوِيلِ قَدْ صَارَ بِتَعَدُّدِ الِاصْطِلَاحَاتِ مُسْتَعْمَلًا فِي ثَلَاثَةِ مَعَانٍ:

أَحَدُهَا: وَهُوَ اصْطِلَاحُ كَثِيرٍ مِن الْمُتَأَخِّرِينَ مِن الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْفِقْهِ وَأُصُولِهِ: أَنَّ التَّأْوِيلَ هُوَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَن الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إِلَى الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ؛ لِدَلِيلٍ يَقْتَرِنُ بِهِ[1].

إذا قلت: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعْنَى: عَلَا واستَقَرَّ، فهذا تفْسِيرٌ ويعْلَمُهُ العُلماءُ.

إذا قلت استوى على كيْفِيَّةٍ كذَا وكذَا فهذا من التَّأويلِ بمَعْنى الحقيقةِ، ولا يعلَمُهُ إلا اللهُ، فتبيَّنَ الآن أن للتَّأويلِ معْنَيينِ؛ إما التفسيرُ وإما حقِيقَةُ المؤوَّلِ، فعلى الأَوَّلِ يكون الوقْفُ؛ لأنَّ الرَّاسِخِينَ في العِلْمِ يَعلمون، وعلى الثَّاني يكون القَصْدُ بأن ذَلِك لا يعْلَمُه إلا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

[١] التَّأويل يُطلَقُ على ثلاثَة اصطلاحاتٍ:

الأوَّل: الصَّرْفُ عن المَعْنى الرَّاجِحِ إلى المَعْنى المرْجُوح، وهل يمْكِنُ أن تَتَنَزَّلُ الآيَة ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]، على هذا الاصطلاحِ؟ الجوَاب: لا؛ لأنَّ هذَا اصطلاحُ المتأخِّرينَ، هل يُعرف هذا في كلامِ اللهِ ورسولِه؟ أبدًا.

يعْنِي: معنَّاه أوَّلَ الكَلام إلى كَلام ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النحل:٩٨]، إذا قرأتَ؛ مع أن المُرادَ: إذا ابتَدَأْتَ، صَرْف ﴿قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إلى معْنَى إذا ابتدأتَ يُعْتَبَرُ تأْويلًا؛ لأننا صَرَفْنَا الكلامَ عن ظاهِرِه؛ عن الاحتمالِ الرَّاجِحِ للاحتمالِ المرجوحِ بدليلٍ يقْتَرِنُ به؛ وهو أنَّ الرَّسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يكن يَسْتَعِيذُ عندَ الانتهاء من القِراءةِ، ولكنه يستَعِيذُ إذا بَدَأَ القراءةَ، فإذا بدأ القراءةَ استعَاذَ، ونُسَمِّي هذا التفسيرَ على هذا الاصطلاح تأويلًا.

وَهَذَا هُوَ الَّذِي عَنَاهُ أَكْثَرُ مَنْ تَكَلَّمَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي تَأْوِيلِ نُصُوصِ الصِّفَاتِ وَتَرْكِ تَأْوِيلِهَا[١].

﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بمعْنَى استَوْلى هذا تأويلٌ؛ لأنَّه صرفُ اللفظِ عن المَعْنى الرَّاجِحِ إلى المَعْنى المرجوحِ، لكن هل هناكَ دَليلٌ؟ كلِمَةُ (بدليل) ليست من تمامِ التعريفِ، ولكنها من تمامِ صِحَّة التَّأويلِ؛ يعني: التَّأويلُ يكونُ صَحِيحًا إذا كان له دَليلٌ، ولا يكونُ صَحِيحًا إذا لم يكن له دليلٌ.

فالَّذي يقـول: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعْنَى استَوْلى، هم يَزعُمـونَ أن لـهم دَلِيلًا على ذَلِك، وهو أن العقْلَ يُحيلُ أن يكونَ الله تعالى مستويًا؛ أي: مرْتَفِعًا وعاليًا عن العَرْشِ، هذا دليلٌ عَقْلِيٌّ، ونحن نرى أن هذا غيرُ دليلٍ؛ ولهذا قلنا: إن هذا التَّأويلَ تأويلٌ فاسدٌ.

المهم: أن المعْنَى الأوَّلَ للتَّأويلِ هو صرْفُ اللفظِ عن المَعْنى الرَّاجِحِ إلى المَعْنى المرجوحِ، وهل نحتاج إلى كلمةِ (بدليل) يقْتَرِنُ به؟ لا، لا نحتَاجُ، إنما نحتاجُ إليها إذا كُنا نريدُ التَّأويلَ الصحيحَ، أما مجَرَّدُ صرْفِ اللفْظِ فهو سواء بدليلٍ أو بغيرِ دَليلٍ يُسَمَّى تأويلًا، لكن إن كان بدليلٍ فهو تأويلٌ صحيحٌ إذا كان هذا الدليلُ صحيحًا، وإذا لم يكُنِ الدَّليلُ صحيحًا فليس صحيحًا إذن التَّأويلُ غيرُ مقبولٍ.

تعريف هذا التَّأويلِ: صرفُ اللفظِ عن المعنَى الرَّاجِح إلى المَعْنى المرجوحِ، ثم إن كان بِدَليلٍ فهو صحيح وإن لم يكن بِدليلٍ فهو فاسِدٌ.

[١] يعني: الَّذين يقُولُونَ بتأويلِ آياتِ الكِتابِ وصرْفِ اللَّفْظِ على الاحتمالِ الرَّاجِحِ إلى الاحتمالِ المرجُوحِ.

وَهَلْ ذَلِكَ مَحْمُودٌ أَوْ مَذْمُومٌ أَوْ حَقٌّ أَوْ بَاطِلٌ[١]؟

[١] إذا كان عليه الدليلُ فهو محمُودٌ وحَقٌّ، وإذا لم يكن عليه الدَّلِيلُ فليس محمودًا وليس بحَقٍّ وهو باطِلٌ، والله أعلم.

التَّأويل له ثلاثَةُ اصطلاحاتٍ:

أولًا: اختلافُ الدليلِ مِنَ المتأخِّرينَ كما قال المُؤلِّف وهو صَرْفُ اللَّفْظ عن المَعْنى الرَّاجِحِ إلى المَعْنى المرجوحِ، مثال ذَلِك: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ [النحل:٩٨]، المَعْنى الرَّاجِحُ: إذا قرأتَ أي: أتممتَ القِراءةَ؛ لأنَّه لا يَصْدُقُ الإنسانُ أنه قَرَأَ إلا إذا قَرأَ، أو على المَعْنى المرجوحِ: إذا قرأتَ؛ أي: أردتَ القِراءةَ؟ تُحمَلُ على المَعْنى المرجوح، فإذا قلنا: إذا قرأتَ القرآنَ؛ أي: إذا أرَدْتَ قِراءتَهُ، سمَّينا هذا تأويلًا؛ لأننا أخرَجْنَا الآيَة عَنِ المعنَى الرَّاجِح إلى المَعْنى المرجوحِ، ولكن هذا التَّأويلُ صحيحٌ؛ لأنَّه دلَّتْ عليه السُّنَّة، وهو عمَلُ النَّبِيِّ ﷺ حيث كان يستَعِيذُ إذا أرادَ أن يَقْرَأَ.

هذا مثال آخر: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه:٥]، المَعْنى الراجح: عَلا واسْتَقَرَّ، والمَعْنى المرجوحُ ﴿ٱسْتَوَىٰ ﴾ أي: استَوْلى، الخَلَفُ مِنَ الأشَاعِرَةِ وغيرهم يقُولُونَ: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعْنَى استَولى، ونُسمِّي هذا التفسيرَ تأويلًا؛ لأنَّهم أخرَجُوه عن المَعْنى الرَّاجِحِ إلى المَعْنى المرجوحِ، ما دَلِيلُكم؟

يقُولُونَ: دلِيلُنَا أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يمكن أن يسْتَوِيَ على العرشِ؛ لأنَّ هذا يقْتَضِي أن يكونَ له جِسمٌ إلى آخرَ ما يقُولُونَ، لكن أهلَ السُّنَّةِ والجماعَةِ يقُولُونَ: نَحمِلُ اللفظَ على المَعْنى الرَّاجِح وهو أنه بمعْنَى علا واسْتَقَرَّ؛ لأنَّ التَّأويلَ الَّذي ذَكَرْتُم ليس عليه دَليلٌ، وحمْله على المعْنى الرَّاجِح لا يمْنَعُه مانعٌ، فيجبُ أن يُحمل على المعْنى الرَّاجِح.

الثَّانِي: أَنَّ التَّأْوِيلَ بِمَعْنَى التَّفْسِيرِ[١].

وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ عَلَى اصْطِلَاحِ الْمُفَسِّرِينَ لِلْقُرْآنِ كَمَا يَقُولُ ابْنُ جَرِيرٍ وَأَمْثَالُهُ مِن الْمُصَنِّفِينَ فِي التَّفْسِيرِ، وَاخْتَلَفَ عُلَمَاءُ التَّأْوِيلِ[٢].

وَمُجَاهِدٌ إِمَامُ الْمُفَسِّرِينَ[٣]، قَالَ الثَّوْرِيُّ: «إِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُكَ بِهِ»[٤]، وَعَلَى تَفْسِيرِهِ يَعْتَمِدُ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُمَا، فَإِذَا ذَكَرَ أَنَّهُ يَعْلَمُ تَأْوِيلَ الْمُتَشَابِهِ فَالْمُرَادُ بِهِ مَعْرِفَةُ تَفْسِيرِهِ[٥].

---

[١] ويقالُ: تأويلُهُ يدُلُّ على كذا، أي: تفْسِيرُهُ.

[٢] المَعْنى الثَّاني في التَّأويلِ أي: التَّفْسيرُ، تأويلُ كذا أي: تفسِيرُهُ، يقول المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن هذا هو اصطلاحُ المفسِّرينَ للقُرآنِ، ولا سيَّما الَّذين يُفسِّرونه بالأثر مثلُ ابنِ جَريرٍ وأمثالِه، دَعُونا من الَّذين يُفَسِّرُونَهُ بالنَّظَرِ مثل الزمخشَرِيِّ ونحو ذَلِك، هؤُلاءِ قد يَعْنُونَ بالتَّأويلِ المَعْنى الأوَّل، لكن مثلَ ابنِ جرير الَّذين تفْسيرُهُم تفسِير أثَرِيٌّ، هؤُلاءِ إذا قالوا: التَّأويلُ أو تأويلُ قوله تعالى. يريدون بذلِكَ التَّفْسِير، فإذن هذا معْنَى آخر للتَّأويل.

[٣] قَصْدُهُ إمامَ المفسِّرينَ في زمنِهِ، وإلا فقَبْلَه مَن هو أعْلم منه كابنِ عبَّاسٍ مثلًا، لكنَّ مجاهدًا إمامُ المفسِّرينَ من التابعين.

[٤] يعني: مَعْناهُ أنه يكْفِيكَ عن غَيرِهِ، وهذا ثناءٌ سابِقٌ.

[٥] إذا قُلْنَا: التَّأويلُ أي: التَّفْسِيرُ، فهنا يكون الصَّوابُ في الآيَة الوصْلَ؛ لأنَّ الرَّاسِخِينَ في العِلمِ يعلَمُونَ تأويلَ المتشابِه، فإذا قُلنا بالمَعْنى هذا الثَّاني أن التَّأويلَ

الثَّالِثُ مِنْ مَعَانِي التَّأْوِيلِ: هُوَ الحَقِيقَةُ الَّتِي يَؤُولُ إِلَيْهَا الْكَلَامُ كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣]، فَتَأْوِيلُ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَخْبَارِ المَعَادِ هُوَ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِيهِ مِمَّا يَكُونُ مِنَ الْقِيَامَةِ وَالحِسَابِ وَالجَزَاءِ وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تعالى فِي قِصَّةِ يُوسُفَ لَـمَّا سَجَدَ أَبَوَاهُ وَإِخْوَتُهُ قَالَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:١٠٠]، فَجَعَلَ عَيْنَ مَا وَجَدَ فِي الخَارِجِ هُوَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَا[1].

بمعنَى التَّفْسِيرِ فلا شكَّ أن قراءةَ الوصلِ أصَحُّ؛ لأنَّ الراسِخينَ في العِلْمِ يعلمونَ تفسيرَ المتَشَابِه، ولهذا رُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قالَ: «أَنَا مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ»(١)، ومعْنَى تأويلِهِ: تَفْسِيرُهُ، والَّذي قال له الرَّسولُ ﷺ: «اللهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»(٢)، عَلِّمْهُ التَّأويلَ أي: التَّفْسِيرَ، فصارتِ الآيَةُ إذا حَمَلْنَا التَّأويلَ في قولِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إذا حملناهُ على التفسيرِ كان الوصلُ أوْلى من الوقفِ؛ لأنَّ الرَّاسِخِينَ في العلم يعْلمونَ التفسيرَ.

[١] هذا المَعْنى الثَّالثُ في التَّأويلِ أنه الحقيقَةُ الَّتي يَؤُولُ إليها الكلامُ.

فإذا كان الكَلام خَبَرًا عن شيءٍ فتأويلُهُ وُقوع المُخبَر به.

وإذا كان الكلامُ أمرًا فتأويلُهُ فِعْلُ المأمُورِ بِه.

فيُوسفُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رأى في المنامِ أحدَ عشَرَ كوكبًا والشمسَ والقمرَ له ساجِدِينَ، فهذه الرُّؤيَا خبرٌ في الواقعِ؛ لأنَّ «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ

---

(١) تقدم تخريجه (ص:٢٦٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، رقم (١٤٣).

.....

جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»[١]، فكأنَّه لما رَأَى هؤُلاءِ يسْجُدونَ كأنه أُخْبِر بأن هؤُلاءِ يسْجُدونَ له، يعْنِي: أُوحِيَ إليه بأن هؤُلاءِ يسْجُدونَ له، بعْد مُدَّة من دخولهم مصرَ خرُّوا له سُجدًا قال: ﴿تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:١٠٠]، وما معْنَى تأويلها؟ أي: وقُوعُ ما أخْبَرَ به، وكذَلِك يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في المكذِّبينَ يومَ القِيامَة: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف:٥٣]، ومعْنَى تأويلِه: وقُوعُ ما أخبَرَ به، ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣]، فهذا التَّأويلُ الَّذي بمَعْنَى الحقِيقَةِ.

نقول: التَّأويلُ الَّذي بمعْنَى الحقِيقَةِ إن كان خبرًا فتأويلُهُ وقوعُ المُخْبَرِ به، وإن كان أمرًا فتأويلُهُ فِعْلُ المأمورِ بِهِ، ولهذا قالتْ عائِشَةُ في فِعْل الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حينما كان يقولُ: «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي»[٢]. قالت: إنه يتأوَّلُ القُرآنَ، ومعْنَى يتأوَّله أَيْ: يفْعَلُ ما أُمِرَ بِهِ؛ لأنَّ مآلَ الكلامِ إذا كانَ أمْرًا أن يَفْعَلَ هذا الأمْرَ، ومآلُ الكلامِ إذا كان خَبرًا أن يَقَع المُخْبَرُ بِهِ.

وعلى هذا المَعْنى -أي: على معْنَى أن التَّأويلَ بمَعْنَى العاقِبَةِ، وحقيقَةِ المُخْبَرِ بِهِ، وحقيقةِ المأمورِ بِهِ- يكونُ الوقْفُ على قولِهِ: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أوْلَى مِنَ الوصْلِ؛ لأنَّ حقيقةَ ما أخْبَرَ اللهُ به عن نفْسِه وعن اليوم الآخِرِ لا يعْلَمُها إلا اللهُ، ولا يعْلَمُها الرَّسولُ.

إذن فالَّذي يتنَاسَبُ والآيَةُ هُما المعنيانِ الأخيرانِ الثَّاني والثَّالث، أما المَعْنى

(١) أخرجه البخاري: كتاب التعبير، باب: الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة، رقم (٦٥٨٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التسبيح والدعاء في السجود، رقم (٧٨٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٤).

الثَّانِي: هُوَ تَفْسِيرُ الْكَلَامِ وَهُوَ الْكَلَامُ الَّذِي يُفَسَّرُ بِهِ اللَّفْظُ حَتَّى يُفْهَمَ مَعْنَاهُ أَوْ تُعْرَفَ عِلَّتُهُ أَوْ دَلِيلُهُ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ الثَّالِثُ هُوَ عَيْنُ مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي الخَارِجِ، وَمِنْهُ قَوْلُ عَائِشَةَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ[1] .....

الأَوَّلُ فلا يتلاءمُ مع الآيَةِ، واللهُ تعالى بقولِه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧] لم يُرِدِ المعْنَى المرجوحَ، وإنَّما أرادَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إما حقيقَةَ الأمرِ الَّذي أَخْبَرَ به، وإما تَفْسيرَ الخبرِ.

وعليه فإذا أُريدَ بالتَّأويلِ التَّفْسيرُ، فإنَّ الرَّاسِخِينَ في العِلْمِ يعلَمُونَهُ ويكون الوقْفُ أوْلى، وإذا أُريدَ بالتَّأويلِ الحقيقَةُ الَّتي يَؤولُ إليها الكلامُ، وهو وقوعُ ما أخبَرَ به وما أمَرَ به، فإنَّ ما أَخْبر اللهُ به عن نفْسِه وعن اليومِ الآخِرِ لا يَعلمُه إلا اللهُ.

المَعْنى الثَّاني: التَّأويلُ بمعْنَى التَّفسيرِ.

والمَعْنى الثَّالثُ: التَّأويلُ بمعْنَى الحقيقَةِ الَّتي عَلَيْهَا المؤَوَّل، وهذان المعنيانِ هما اللذانِ يمكنُ أن تتَنَزَّلَ عليهما الآيَةُ.

فإن فُسَّرْتَ الآيَة بمعْنى التفسيرِ فعليكَ أن تقِفَ، وإن فسَّرتَ التَّأويلَ بمعْنَى الحقيقةِ الَّتي عليها الكلامُ فإن الوقفَ أوْلَى، ويكون هذا مما لا يعْلمُه إلا الله.

وإذا سأل سائل: لماذا تَرَكَ المؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ المَعْنى الأوَّلَ؟

فالجوَاب: إنه تركَ المعْنى الأوَّلَ الَّذي هو صرْفُ اللفظِ عن المعْنَى الرَّاجِح إلى المَعْنى المرجوحِ؛ لأنَّه لا يُوافِقُ الآيَةَ ولا يُرادُ في الآيَةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التسبيح والدعاء في السجود، رقم (٧٨٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٤).

يعْنِي: قَوْلَهُ: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾، وَقَوْلُ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ: السُّنَّةُ هِيَ تَأْوِيلُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ. فَإِنَّ نَفْسَ الْفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ هُوَ تَأْوِيلُ الْأَمْرِ بِهِ وَنَفْسَ الْمَوْجُودِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ هُوَ تَأْوِيلُ الخَبَرِ وَالْكَلَامُ خَبَرٌ وَأَمْرٌ.

وَلِهَذَا يقُولُ أَبُو عُبَيْدٍ وَغَيْرُهُ: الْفُقَهَاءُ أَعْلَمُ بِالتَّأْوِيلِ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ كَمَا ذَكَرُوا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ اشْتِمَالِ الصَّمَّاءِ؛ لِأَنَّ الْفُقَهَاءَ يَعْلَمُونَ تَفْسِيرَ مَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ لِعِلْمِهِمْ بِمَقَاصِدِ الرَّسُولِ ﷺ كَمَا يَعْلَمُ أَتْبَاعُ بُقْرَاطٍ وَسِيبَوَيْهِ وَنَحْوِهِمَا مِنْ مَقَاصِدِهِمَا مَا لَا يُعْلَمُ بِمُجَرَّدِ اللُّغَةِ[١].

---

[١] المؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: إن التَّأويلَ بمعْنَى التَّفْسِيرِ، والتَّأويلُ بمعنَى الحقِيقَةِ الَّتي يُؤولُ إليها، نأتي مثلًا إلى تفسيرِ كَلامِ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الأمورِ الشَّرْعِيَّةِ إذا تعارضَ عندنا التفسيرُ اللُّغَوِيُّ والشَّرْعِيُّ فأيهُمْ أعلمُ: الفُقهاءُ الَّذين يتكلَّمونَ على المقاصدِ الشَّرعِيَّةِ أو: أهلُ اللُّغَةِ الَّذين يتكلَّمُونَ على المعانِي اللُّغَوِيَّةِ؟

نقول: الفقهاءُ أعْلَمُ بالتَّأويلِ من أهلِ اللُّغَةِ؛ لأنَّ الفقهاء هم أهْلُ الشَّرعِ الَّذين تمرَّنوا على فِقْهِهِ ومعْرِفتِه فيَعْرِفُونَ مُرادَه لكلامِهِ؛ لأنَّهم تعوَّدُوا عليه، مثلُ ما أن الأطباءَ يعرِفُونَ ما لا يَعْرِفُهُ أهلُ اللُّغةِ؛ لأنَّ عندهُمُ اصطلاحاتٍ طبيَّةً لا يعرفها أهلُ اللُّغةِ، سِيبويه يَعرف أتباعُه من كلامه ما لا يعْرِفُه غيرُه؛ لأنَّهم تمرَّنُوا على الكلامِ، والإنسانُ إذا قرأ كُتُبَ عالمٍ من العلماءِ وتَرَدَّدَ فيها يمْكِنُ لو قرأ عِبارة ما نُسبتْ إليه عَرَف أنها ليست من كلامِهِ؛ مثلًا من قرأ كُتبَ شيخِ الإسلامِ ابنِ تَيمِيَّةَ بكثرةٍ وإذا عباراتها مِثْلُ عبارات الرجل تقول: هذا من كلامِ ابنِ تَيمِيَّةَ؛ لأنَّك عرفت منهجَهُ وأسلوبَه وكلامَهُ، وكذَلِك كلُّ إنسانٍ يتكَرَّرُ قراءتُكَ لكلامِهِ لا شَكَّ أنك تعْرِفُ من كلامه ما لا يَعرفه غيرُك.

وَلَكِنَّ تَأْوِيلَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِخِلَافِ تَأْوِيلِ الخَبَرِ[١].

إذَا عُرِفَ ذَلِكَ: فَتَأْوِيلُ مَا أَخْبَرَ اللهُ تعالى بِهِ عَنْ نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الْمُتَّصِفَةِ بِمَا لَـهَا مِنْ حَقَائِقِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، هُوَ حَقِيقَةٌ لِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الْمُتَّصِفَةِ بِمَا لَـهَا مِنْ حَقَائِقِ الصِّفَاتِ، وَتَأْوِيلُ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ تعالى مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ هُوَ نَفْسُ مَا يَكُونُ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، .....

الآن إذا جاءنَا إنسانٌ قرأ في الفِقْهِ وتمرَّنَ فيه وإنسان لم يتَمرَّن فيه أيهم أعرفُ بكلامِ الفُقهاءِ؟ بالتأكيد الأَوَّلُ أعرَفُ؛ لأنَّه مُتمَرِّن، وهذا شَيء معروفٌ.

[١] معلومٌ تأويلُ الأمْرِ والنَّهْي، تَأوِيلٌ للأمرِ بفعلِهِ فلَا بُدَّ أن تعْرِفَهُ؛ لأنَّك لَا بُدَّ أن تَصِفَ الأمرَ، والنهي كذَلِك لَا بُدَّ أن تَتَجَنَّبَهُ، لكنَّ الخبرَ هل نحن مُلْزَمُونَ بمعرفةِ الحقيقَةِ بالمعْنى؟

الجوَاب: لا، ولا يمكنُنَا ذلكَ أيضًا في الأمورِ المستْقَبَلَةِ؛ الفَرعُ إذا أمَرَ اللهُ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، تأويلُ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعْنِي: أولًا تَفْهُم معْنى أَقِمْ، وهذا الشَّيءُ بمعْنَى التَّفْسِيرِ، ثم تُقيمُ الصلاةَ، وهذا التَّأويلُ بمَعْنَى الحقيقةِ الَّتي يَؤُولُ إليها الكلامُ، فلَا بُدَّ أنك تَعْرِفُ معْنَى أقيمُوا الصلاةَ.

والنهي عن الزِّنا: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء:٣٢]، لَا بُدَّ أن تعْرِفَ ما هو الزنا ولَا بُدَّ أن تبتَعِدَ عنْهُ.

لكن ﴿ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠]، ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، هل يلْزَمُ عليك أن تعْرِفَ حقيقةً للهِ؟ لا، تعْرِفُ معناه وكفى، وإن كنت لم تَصِلْ إلى معْرِفَةِ الحقيقَةِ فِيهَا.

وَلِهَذَا مَا يَجِيءُ فِي الحَدِيثِ نَعْمَلُ بِمُحْكَمِهِ وَنُؤْمِنُ بِمُتَشَابِهِهِ؛ لِأَنَّ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنِ الْيَوْمِ الْآخِرِ فِيهِ أَلْفَاظٌ مُتَشَابِهَةٌ يُشْبِهُ مَعَانِيهَا مَا نَعْلَمُهُ فِي الدُّنْيَا، كَمَا أَخْبَرَ أَنَّ فِي الجَنَّةِ لَحْمًا وَلَبَنًا وَعَسَلًا وَخَمْرًا وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَهَذَا يُشْبِهُ مَا فِي الدُّنْيَا لَفْظًا وَمَعْنًى، وَلَكِنْ لَيْسَ هُوَ مِثْلَهُ وَلَا حَقِيقَتَهُ فَأَسْمَاءُ اللهِ تعالى وَصِفَاتُهُ أَوْلَى، وَإِنْ كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَسْمَاءِ الْعِبَادِ وَصِفَاتِهِمْ تَشَابُهٌ أَنْ لَا يَكُونَ لِأَجْلِهَا الخَالِقُ مِثْلَ المَخْلُوقِ، وَلَا حَقِيقَتُهُ كَحَقِيقَتِهِ، وَالْإِخْبَارُ عَنِ الْغَائِبِ لَا يُفْهَمُ إِنْ لَمْ يُعَبَّرْ عَنْهُ بِالْأَسْمَاءِ المَعْلُومَةِ مَعَانِيهَا فِي الشَّاهِدِ، وَيُعْلَمُ بِهَا مَا فِي الْغَائِبِ بِوَاسِطَةِ الْعِلْمِ بِمَا فِي الشَّاهِدِ؛ مَعَ الْعِلْمِ بِالْفَارِقِ الْمُمَيِّزِ[1].

---

[١] المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: لَا بُدَّ أن يُخبِرَ اللهُ تعالى أن في الجنَّةِ من النَّعيمِ، ولكن بماذا يُخبِرُ؟ يُخبِرُ بألفاظٍ تكون مماثِلَةً بما نُشاهِدُهُ في الدُّنيا، في الجنَّةِ فاكِهَةٌ ونخْلٌ ورُمَّانٌ، الحَقِيقَة مُختلِفَةٌ، لكن هِي غائبة عنَّا ولا نُشاهدُها، هل يمكِنُ أن نعلمَ هذا إلا بأنْ يُعبَّرَ بها عنها بما نعْلَمُه، إذا لم يُعبَّر بعبارة نعْلَمُها لا نعْرِفُهَا في الغالبِ، هذا معْنَى كلامِ المؤلِّفِ، كأنه يقولُ إن ما أخبرَ اللهُ به عَنْ نفسِه وما أخبرَ به عمَّا في الجنَّةِ من النَّعيمِ وما في النَّار من العَذابِ لَا بُدَّ أن يُعبَّرَ به بألفاظٍ معلومَةٍ لنا نعْرِفُ معانِيهَا؛ لأنَّه لو لم يُعبّر بها كذَلِك ما عَرَفْنَا عنها شيئًا؛ إذ الغائبُ لا يمكن معرفَتُهُ إلا بالتعبير عنه فيما نُشاهِدُهُ.

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ وجهانِ للسلَفِ في الوقفِ والوَصْلِ:

الوقْفُ: على أن معْنَى التَّأويلِ الحقِيقَة.

الوصلُ: على أن التَّأويلَ بمَعْنى التفْسيرِ.

.....

ما هو تأويلُ الخبرِ على القولِ بأن التَّأويلَ هو الحقِيقَةُ؟

تأويل الخبر: هو وقوعُ المخبَرِ بِهِ.

وماذا يكون تأويل الأمرِ إذا كان بمَعْنى الحقِيقَةِ؟

تأويل الأمرِ: امتِثَالُ المأمورِ.

هل يمكن أن يخْرُجَ التَّأويلُ الَّذي في الآيَة وما يعلَمُ قوْلَ اللهِ على المَعْنى أم لا يمكن؟ الآيَة تحتَمِلُ من معاني التَّأويلِ الثلاثِ؛ تحتَمِلُ التفسيرَ، والحقيقةَ، ولا تحتَمِلُ صرفَ اللفظِ عن المعْنى الرَّاجِح إلى المَعْنى المرجُوحِ.

وقوله: «**إذَا عُرِفَ ذَلِكَ: فَتَأْوِيلُ مَا أَخْبَرَ اللهُ تعالى بِهِ عَنْ نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الْمُتَّصِفَةِ بِمَا لَـهَا مِنْ حَقَائِقِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، هُوَ حَقِيقَةٌ لِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الْمُتَّصِفَةِ بِمَا لَـهَا مِنْ حَقَائِقِ الصِّفَاتِ**»، تأويلُ ما أَخبَرَ اللهُ به عن نفْسِه بمعْنَى الحقيقَةِ هو نفْسُ ذاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وما لها مِنَ الأسْماءِ والصِّفَاتِ.

قوله: «**وَتَأْوِيلِ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ تعالى مِن الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ هُوَ نَفْسُ مَا يَكُونُ مِن الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ**» على المَعْنى؛ أي: المعاني على معْنَى الحقيقةِ على معْنَى أن التَّأويلَ هو الحقِيقَةُ.

مَا جَاءَ في القُرآنِ أو الحدِيثِ نَعْمَلُ بمُحْكَمِهِ ونُؤمِنُ بمُتَشَابِهِهِ:

قولُهُ: «**وَلِـهَذَا مَا يَجِيءُ فِي الحَدِيثِ نَعْمَلُ بِمُحْكَمِهِ وَنُؤْمِنُ بِمُتَشَابِهِهِ؛ لِأَنَّ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَن الْيَوْمِ الْآخِرِ فِيهِ أَلْفَاظٌ مُتَشَابِهَةٌ يُشْبِهُ مَعَانِيهَا مَا نَعْلَمُهُ فِي الدُّنْيَا، كَمَا أَخْبَرَ أَنَّ فِي الجَنَّةِ لَـحْمًا وَلَبَنًا وَعَسَلًا وَخَمْرًا وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَهَـذَا يُشْبِهُ مَا فِي**

وَأَنَّ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ مِن الْغَيْبِ أَعْظَمُ مِمَّا يُعْلَمُ فِي الشَّاهِدِ، وَفِي الْغَائِبِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَنَحْنُ إِذَا أَخْبَرَنَا اللهُ بِالْغَيْبِ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ مِن الجَنَّةِ وَالنَّارِ، عَلِمْنَا مَعْنَى ذَلِكَ وَفَهِمْنَا مَا أُرِيدَ مِنَّا فَهْمُهُ بِذَلِكَ الخِطَابِ، وَفَسَّرْنَا ذَلِكَ، وَأَمَّا نَفْسُ الحَقِيقَةِ المُخْبَرِ عَنْهَا مِثْلَ الَّتِي لَـمْ تَكُنْ بَعْدُ، وَإِنَّمَا تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَذَلِكَ مِن التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ[١].

وَلِهَذَا لَـمَّا سُئِلَ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ مِن السَّلَفِ عَنْ قَولِهِ تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، قَالُوا: الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ[٢].

الدُّنْيَا لَفْظًا وَمَعْنًى؛ وَلَكِنْ لَيْسَ هُوَ مِثْلَهُ» يعني: هو ليسَ مِثلَه في الحقيقَةِ ولا هو حقِيقَتُه أيضًا؛ الرُّمَّان الَّذي في الدُّنْيا ليس الرُّمَّان الَّذي في الآخِرةِ مَثلًا، واللَّحْمُ الَّذي في الدُّنيا ليس اللَّحْمَ الَّذي في الآخرة ولا هو أيضًا مِثلهُ، لكن يُوافقُهُ في الاسمِ والمَعْنى، أما في الحَقِيقَة فلا يوافِقُهُ.

وإذا سألَ سائلٌ: ماذا يجِبُ علينا تجاه المحكَمِ والمتشَابِهِ؟

فالجوَاب: أننا نعملُ بِمُحْكمِهِ ونؤمِنُ بمتَشَابِهِهِ، فمحكُمُه نعمَلُ به والمتشابِهُ نتركُ عِلْمَه إلى اللهِ.

[١] حقيقةُ هذه المغيَّباتِ غيرُ معلُومَةٍ، ومعناها مَعلومٌ.

[٢] وهذا مَا رَأَيْنَا.

«**الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ**» مَعناهُ العُلوُّ والاستِقْرارُ، «**وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ**» أي: لا نَدْرِي كيفَ استَوى اللهُ على العَرْشِ، «**وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ**»، «**بِهِ**» أي: بالاستواءِ واجبٌ،

وَكَذَلِكَ قَالَ رَبِيعَةُ شَيْخُ مَالِكٍ قَبْلَهُ[١].

الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ[٢]، وَمِنَ اللهِ الْبَيَانُ[٣]، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا الْإِيمَانُ[٤].

والتَّعْلِيلُ أن الله تعالى أخبرَ به عن نفْسِه ويجِبُ علينا تصْديقُهُ، «وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ» أي: عن الكَيفِيَّةِ؛ لأنَّه لم يسألْ عنه الصحابَةُ والسَّلَفُ.

أو أن المعْنى: أن السُّؤالَ عنه من شأنِ أهْلِ البِدعَةِ، وأن الَّذينَ يسألون عن هذه الأشياءِ هم أهلُ البِدَعِ لأجل أن يتوصَّلُوا من التوقُّف عن الكَيفِيَّةِ إلى نفْيِهَا؛ يعني: يريدونَ أن يُخْرِجُوا أهلَ السُّنَّةِ فيسألونهم عن الكيْفيَّاتِ، فيحتمِل أن معْنَى السُّؤال عنه بِدْعَة أنه لم يسألْ عنه أحد الصَّحابةِ، أو أن المَعْنى: أنه من شأنِ أهلِ البِدَعِ وأنهم الَّذين يتساءلون لإحراجِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ في إثباتِ الصِّفَاتِ.

[١] يَعْنِي: قَبلَ مالِكٍ.

[٢] الكلامُ الَّذي يتعَلَّقُ بالصفَةِ اتفق عليه مالِكٌ وشيخُه، وهو الاستِواءُ معلومٌ والكيفُ مجْهولٌ.

[٣] قوله: «وَمِنَ اللهِ الْبَيَانُ» واضحٌ أن الله بَيَّن ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل:١٢]، أوجبَ اللهُ على نفسِه أن يُبيِّن للناسِ أنه علينا لَلْهُدى، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القِيامَة:١٩].

[٤] وعلى الرَّسولِ البَلاغُ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن﴾ [المائدة:٦٧]، فنحنُ وظِيفتُنَا الإِيمَانُ؛ لأنَّه لا عُذرَ لنا بعْد ذلكَ.

فَبَيَّنَ أَنَّ الِاسْتِوَاءَ مَعْلُومٌ وَأَنَّ كَيْفِيَّةَ ذَلِكَ مَجْهُولٌ[١].

وَمِثْلُ هَذَا يُوجَدُ كَثِيرًا فِي كَلَامِ السَّلَفِ، وَالْأَئِمَّةُ يَنْفُونَ عِلْمَ الْعِبَادِ بِكَيْفِيَّةِ صِفَاتِ اللهِ، وَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ كَيْفَ اللهُ إِلَّا اللهُ فَلَا يَعْلَمُ مَا هُوَ إِلَّا هُوَ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»(١). وَهَذَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ، وَقَالَ فِي الحَدِيثِ الْآخَرِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَو اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»(٢)[٢].

وَهَذَا الحَدِيثُ فِي الْمُسْنَدِ، وَصَحِيحِ أَبِي حَاتِمٍ، وَقَدْ أَخْبَرَ فِيهِ أَنَّ للهِ مِن الْأَسْمَاءِ مَا اسْتَأْثَرَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَهُ[٣]، فَمَعَانِي هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي اسْتَأْثَرَ بِهَا فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَهُ لَا يَعْلَمُهَا غَيْرُهُ.

وَاللهُ -سُبْحَانَهُ- أَخْبَرَنَا أَنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ غَفُورٌ رَحِيمٌ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، .....

---

[١] وهنا الصَّواب: مجهولَةٌ بالتأنيثِ؛ لأنَّ المبتدأ إذا كان مؤنَّثًا يكون الخبَرُ مؤنَّثًا.

[٢] ومعْنَى «اسْتَأْثَرْتُ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»: أنك لم تُخبِر به أحَدًا.

[٣] الأسْماءُ الَّتي استأثَرَ الله بها ليستْ مَعلومَةً لنا لا بألفاظِهَا ولا بمَعانِيهَا، والأسْماءُ الَّتي بيَّنَهَا اللهُ لنا معلومَةٌ لنا بألفاظِهَا ومعانِيهَا دونَ حقَائِقِهَا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٦).
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٥٢).

فَنَحْنُ نَفْهَمُ مَعْنَى ذَلِكَ وَنُمَيِّزُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَبَيْنَ الرَّحْمَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَنَعْلَمُ أَنَّ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا اتَّفَقَتْ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى ذَاتِ اللهِ مَعَ تَنَوُّعِ مَعَانِيهَا[١]، فَهِيَ مُتَّفِقَةٌ مُتَوَاطِئَةٌ مِنْ حَيْثُ الذَّاتُ مُتَبَايِنَةٌ مِنْ جِهَةِ الصِّفَاتِ[٢].

وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلُ[٣]: مُحَمَّدٍ[٤] .....

---

[١] هَذِهِ مسألَةٌ مُهِمَّةٌ، أسماءُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اتفقَتْ واختلَفَتْ، اتفقَتْ في دَلالَتِها على شيءٍ واحدٍ في الدّلالَةِ على ذاتِ اللهِ؛ فالغَفورُ هوَ اللهُ، والرحيمُ هُو اللهَ، والسميعُ والبصيرُ والعليمُ والقديرُ هو الله، إذن فهي في الدَّلالَةِ على المسمَّى بها متفِقَةٌ.

أما في الدَّلالَةِ على مَعَانِيها وأن لكِلِّ واحدٍ منها مَعنى يَختصُّ بِهِ فمختلفةٌ، فالغفورُ غيرُ الرحيمِ، والسميعُ غيرُ البصيرِ، والعزيزُ غيرُ الحكيمِ.

[٢] قوله: «فَهِيَ مُتَّفِقَةٌ مُتَوَاطِئَةٌ مِنْ حَيْثُ الذَّاتُ» والمُرادُ: ذاتُ اللهِ؛ أي: أنها تَدُلُّ على ذاتٍ واحِدَةٍ، لكن يقول: «مُتَبَايِنَةٌ مِنْ جِهَةِ الصِّفَاتِ» فالصِّفَةُ المفهومَةُ من العَزيزِ غيرُ الصِّفَةِ المفهومةِ مِنَ الحكيمِ مَثَلًا.

إذا سأل سائل: هل أسْماءُ اللهِ مترَادِفَةٌ أم متبَايِنَةٌ؟ فالجوَاب: أنه أما مِنْ حيثُ دَلالَتها على الذَّاتِ فهِي مترادِفَةٌ، كلها تدلُّ على ذاتٍ واحِدَةٍ، وأما من حيثُ دَلالَتها على المَعْنى فهِي متبَايِنَةٌ؛ لأنَّ لكلِّ اسمٍ منها معْنًى يختصُّ بِهِ.

[٣] النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ له أسْماءٌ مُتعدِّدَةٌ، هذه الأسْماءُ في دَلالَتِهَا على ذاتٍ واحِدَةٍ متفِقَةٌ مترادِفَةٌ، وباعتبارِ دَلالةِ كلِّ واحدٍ منها على مَعْنَاه تكونُ مُتَبَايِنَةً.

[٤] قوله: «مُحَمَّدٍ» اسمُ مفعولٍ، مُحَمَّدٌ من التَّحْمِيدِ؛ يعني: أنه يُحمَدُ لكثْرَةِ خِصالِهِ الحمِيدَةِ.

وَأَحْمَدَ[١] وَالمَاحِي[٢] وَالحَاشِرِ[٣] وَالْعَاقِبِ[٤].

وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ الْقُرْآنِ، مِثْلُ الْقُرْآنِ، وَالْفُرْقَانِ، وَالهُدَى، وَالنُّورِ، وَالتَّنْزِيلِ، وَالشِّفَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ[٥].

وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيهَا هَلْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ الْمُتَرَادِفَةِ- لِاتِّحَادِ الذَّاتِ- أَوْ مِنْ قَبِيلِ المتَبَايِنَةِ لِتَعَدُّدِ الصِّفَاتِ؟ كَمَا إِذَا قِيلَ: السَّيْفُ وَالصَّارِمُ وَالْمُهَنَّدُ وَقُصِدَ بِالصَّارِمِ مَعْنَى الصَّرْمِ، وَفِي الْمُهَنَّدِ النِّسْبَةُ إِلَى الهِنْدِ؛ وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهَا مُتَرَادِفَةٌ فِي الذَّاتِ مُتَبَايِنَةٌ فِي الصِّفَاتِ[٦].

---

[١] قوله: «أَحْمَدَ» اسم تفضيلٍ من حَمِد فهو أحْمدُ؛ يعني: أكثرُ النَّاسِ حَمدًا لله، أحْمَدُ النَّاسِ لِربِّه، ويجوزُ أن يكونَ أحْمدُ من بابِ إضافةِ الصفَةِ على أنها اسم مفعولٍ؛ يعني: أكثر من يُحمَدُ من النَّاسِ.

[٢] قوله: «المَاحِي» الَّذي محَا اللهُ بِهِ الكُفْرَ والشِّرْكَ.

[٣] قوله: «الْعَاقِبِ» الَّذي يُحشَر النَّاسُ على قَدَمَيْه.

[٤] قوله: «الْعَاقِبِ» الَّذي يعقُبُ الأنبياءَ قبْلَه؛ لأنَّه خاتمُهم.

[٥] كلُّ هذه أسْماءُ للقُرآنِ في دَلالَتِهَا على القُرآنِ مُترادِفَةٌ، وباعتبارِ أن الفرقانَ له مَعْنى والقُرآن له مَعنى، والهُدى له مَعْنى، والنُّور له مَعْنى تكون متَباينَة، وكذَلِك أيضًا غيرُ أسْماءِ الله تعالى ورسولِهِ وكِتابِهِ.

[٦] السيفُ له أسْماءٌ كثيرةٌ؛ الصَّارِمُ، والمهنَّدُ، والسَّيفُ والبتَّارُ وما أشبهَ ذَلِك، هذه الأسْماءُ باعتبارِ دَلالَتِهَا على السيفِ مُترادِفةٌ متفِقةٌ، وباعتبارِ أن لكلِّ واحدٍ منها معنًى متبايِنَة.

وَمِمَّا يُوَضِّحُ هَذَا أَنَّ الله وَصَفَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ بِأَنَّهُ مُحْكَمٌ وَبِأَنَّهُ مُتَشَابِهٌ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ جَعَلَ مِنْهُ مَا هُوَ مُحْكَمٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ مُتَشَابِهٌ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ الْإِحْكَامُ وَالتَّشَابُهُ الَّذِي يَعُمُّهُ؛ وَالْإِحْكَامُ وَالتَّشَابُهُ الَّذِي يَخُصُّ بَعْضَهُ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ [هود:١]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَحْكَمَ آيَاتِهِ كُلَّهَا، وَقَالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر:٢٣]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ كُلَّهُ مُتَشَابِهٌ[١].

العلماءُ اختلَفُوا هل هَذِهِ الأسْماءُ من المترادِفَةِ أم من المتبَايِنَةِ؛ منهم من يقول: إنها مُترادفةٌ نظرًا إلى اتحادِهَا في الذَّاتِ.

ومنهم من قال: متبَايِنَةٌ نظرًا إلى دلالةِ الشَّيءِ.

ولكن كُلٌّ مِنْهما نَظَرَ إلى وجهٍ وأغْفَلَ الوجهَ الآخَرَ، فإذا نظرنا إلى الوجْهينِ قُلنا: مترَادِفَةٌ باعتبارِ دَلالَتِهَا على الذَّاتِ، ومتباينَةٌ باعتبارِ دَلالَتِهَا على الصِّفَاتِ، وهذا كَما قالَ المؤلِّفُ: هذا هو التَّحْقِيقُ.

[١] يعني: القرآنُ وُصِفَ بثلاثَةِ أوْصافٍ:

أولًا: الآياتُ الَّتي دلَّتْ عَلى وصْفِهِ بالإحكامِ: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود:١]، ﴿يٰسٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يس:١- ٢].

ثانيا: الآياتُ الَّتي دلَّتْ على وصْفِهِ بالتَّشابُهِ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر:٢٣]، والمُرادُ به: القُرآنُ فوصَفُه كُلَّه بأنه متَشَابِهٌ.

ثالثا: الآياتُ الَّتي دلَّتْ على وَصْفِ بعْضِه بالتَّشابُهِ وبعضِهِ بالإحكامِ، فمثل قولِهِ تعالى: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عمران:٧].

وَالْحُكْمُ: هُوَ الْفَصْلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، فَالحَاكِمُ يَفْصِلُ بَيْنَ الخَصْمَيْنِ، وَالحُكْمُ فَصْلٌ بَيْنَ الْمُتَشَابِهَاتِ عِلْمًا وَعَمَلًا إِذَا مَيَّزَ بَيْنَ الحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالصِّدْقِ وَالْكَذِبِ وَالنَّافِعِ وَالضَّارِّ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ فِعْلَ النَّافِعِ وَتَرْكَ الضَّارِّ فَيُقَالُ: حَكَمْتُ السَّفِيهَ وَأَحْكَمْتُه. إِذَا أَخَذْتُ عَلَى يَدَيْهِ، وَحَكَمْتُ الدَّابَّةَ وَأَحْكَمْتُهَا. إِذَا جَعَلْتُ لَـهَا حَكَمَةً؛ وَهُوَ مَا أَحَاطَ بِالحَنَكِ مِن اللِّجَامِ، وَإِحْكَامُ الشَّيْءِ: إِتْقَانُهُ[١].

فَإِحْكَامُ الْكَلَامِ إِتْقَانُهُ بِتَمْيِيزِ الصِّدْقِ مِن الْكَذِبِ فِي أَخْبَارِهِ، وَتَمْيِيزِ الرُّشْدِ مِن الْغَيِّ فِي أَوَامِرِهِ، وَالْقُرْآنُ كُلُّهُ مُحْكَمٌ بِمَعْنَى الْإِتْقَانِ، فَقَدْ سَمَّاهُ اللهُ حَكِيمًا بِقَوْلِهِ: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس:١]، فَالحَكِيمُ بِمَعْنَى: الحَاكِمِ.

كَمَا جَعَلَهُ يَقُصُّ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل:٧٦].

وَجَعَلَهُ مُفْتِيًا فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء:١٢٧]، أي: مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ.

---

[١] المؤلِّفُ الآن أرادَ أن يُبيِّنَ أن الحكمَ هو الفَصْلُ بين الشيئينِ، والإحْكَامُ: هو الإتقانُ، فنحن إذا قالَ أحدُنا: أحكمتُ الشَّيءَ؛ يعني: أتْقَنْتُهُ، قوله: «**وَالْحُكْمُ هُوَ الْفَصْلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ**»، يذهب رجلانِ إلى القاضِي في خُصومَةٍ فيَحْكُمُ القاضِي بينهما؛ فَصَلَ بين الشيئينِ بينَ الحقِّ والباطلِ وبين هذَيْن الرَّجُلينِ، أيضًا القرآنُ بهذا المَعْنى كله مُحكمٌ، والقُرآنُ كُلُّه حَكَمٌ يعني: فَصَلٌ بين الحقِّ والباطلِ، والصدْقِ والكَذِبِ، والنافِعِ والضارِّ وغير ذَلِك، فلهذا صحَّ أن نقول: إن القران كُلَّهُ مُحكم بهذا الاعتبارِ، واللهُ أعلَمُ.